إضاءة

إذا كان لكلّ شعبوية متخيلاتها الخاصة التي تسعى إلى نشرها، فإن لدى الشعبوية اليمينية في أوروبا متخيلات فوقية عن الذات والآخر، تتقاطع مع محتويات انغلاقية لا تزال حاضرة في الذاكرات الجمعية للعديد من المجتمعات، حتى التي لم تشهد حركات هجرة

زهير سوكاح

في غياب معالجة نقدية لثقافة التذكر المجتمعية

الشعبوية والذاكرة الجمعية

تُوصف الشعبوية عادةً بأنّها خطاب سياسي ذو نفَس سلطوي، يقدّم حلولاً بسيطة وغالباً ما يستغل سياسياً الصور العدائية تجاه «الآخر» التي تختزنها الذاكرات الجمعية للمجتمعات التي تشهد انبعاثة جديدة للشعبوية. غير أنّه غالباً ما يُساء عربياً فهم هذه الحركات. ولا سيما الأوروبية منها. من كونها يمينية التوجّه فحسب، بينما قد تتخذ الشعبوية ملامح يسارية أيضاً.

ولتسويغ ذاتها، تعمد الشعبوية إلى تقسيم المجتمع إلى «شعب صالح» و«نخبة فاسدة»، أو بصفة عامة إلى «نحن» و«الآخر». وتعدّ هذه الثنائية من أهم الاستراتيجيات التي توظفها الشعبوية في عمليات الاستقطاب، التي تمارسها كل أطيافها، بما فيها اليسارية.

إلا أنه وبخلاف الشعبوية اليسارية، التي تعادي النخبة الاقتصادية، فإن «الآخر» في الذاكرة المصطفة للشعبوية اليمينية يتجسّد بالأساس في المهاجرين واللاجئين أو الأقليات الإثنية أو الدينية، الذين لا يُنظر إليهم على أنهم جزء حقيقي من «الشعب».

وتسعى الذاكرة الشعبوية اليمينية إلى تهميشهم رغم مواطنتهم الكاملة، وذلك عبر عزلهم في خانة «الآخر» الضيّقة ولو بشكل تخيلي، بعد أن اهتمت النخب الليبرالية بهم - وفق السردية الشعبوية اليمينية - أكثر من اهتمامها بالشعب «الحقيقي»، الذي تتخيّله الشعبوية اليمينية وتدّعي سياسياً أنها الوحيدة القادرة أخلاقياً على أن تدافع عنه في أزمنة الاغتراب القومي والتبدّد الهوياتي، مع أنها هي ذاتها «نخبة» في مواجهة نخبة ليبرالية باسم «الشعب» المتخيل. وهذا تحديداً ما يُميّز الشعبويات اليمينية في أوروبا (من شرقها إلى غربها)، ممّا يجعل الحدود بينها وبين اليمين العنصري المتطرف ضبابية إلى حد كبير. فهل انعدمت الحدود بينهما إلى هذه الدرجة؟

تقدّم لنا الحالة الألمانية إجابات جزئية ومؤقتة لهذا التلاقي الحاصل بين الشعبوية اليمينية والفكر اليميني الشوفيني؛ فبينما تُعلن الحركات اليمينية المتطرفة (سياسية كانت أم لا) بوضوح شديد رفضها القاطع للوجود السياسي الليبرالي بشكله الحالي المتوارث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، مقدمة ذاتها من كونها البديل السياسي والاجتماعي للشعب بوصفه كتلة ثقافية وإثنية متجانسة من منظور قومي عنصري وليس من منظور مُواطني تعدّدي يضمن الحقوق المتساوية حتى في زمن الحاجة الديمغرافية المُلحة للمواطن «الآخر»، نجد أن الشعبوية اليمينية تسعى بخلاف الانغلاق اليميني إلى أن تلعب دوراً بارزاً في الحياة السياسية الديمقراطية، إلا أنها تستلهم من الفكر اليميني المتطرف العديد من أسسه الإيديولوجية الجاهزة في لعبتها السياسية، لكن من دون أن تشكّل هذه الأسس نواة أيديولوجية ثابتة لدى الشعبوية اليمينية، التي تظل بخلاف الفكر اليميني العنصري، خطاباً استهلاكياً بالأساس، مما يضمن لها البقاء في محيط ديمقراطي يرفض ميولها اليمينية، وهذا ما نُلاحظ بشكل دقيق في مسار «حزب البديل الألماني» الذي تأسّس سنة 2013، ليلج البرلمان الاتحادي الألماني سنة 2017 بعد نجاح انتخابي، كان بالأساس نتيجة توظيف سياسي لذاكرة جمعية لا تزال تنظر بنظرة فوقية للآخر الدوني عنها كما لو أنها لم تعالج بعد كل حروقها ومحارقها التاريخية في أزمنة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

من مظاهرة في برلين تظهر فيها أعلام ألمانية قديمة، 2020 (Getty)

ظاهرة الأحزاب الشعبوية اليمينية لا تقتصر على ألمانيا، بل نجدها، كما هو معروف، في جاراتها الدنمارك والنمسا وفرنسا وإيطاليا بل وحتى في سويسرا. وهنا يُطرح التساؤل حول من ينتخب الأحزاب الشعبوية بطريقة ديمقراطية؟ هل هو فعلاً «الشعب» الحقيقي، الذي تتخيّله الحركات الشعبوية اليمينية؟ والأهم: بأي هدف؟

تخبرنا الاستطلاعات المُنجزة، أن ناخبي الأحزاب الشعبوية اليمينية ليسوا بالضرورة من الطبقات الدنيا للمجتمعات الأوروبية، بل هم بالأساس من صميم الطبقة الوسطى الميسورة إلى حد ما، وبخاصة تلك التي تقطن المدن الصغيرة والأرياف، التي لم تتحوّل فيها التعددية العرقية واللغوية إلى واقع يومي كما في كبريات المدن الألمانية. لذا يرى عالم الاجتماع الألماني هولغر لينغفيلد أن سبب الدعم الانتخابي للطبقة الوسطى الألمانية لحزب البديل الشعبوي ليس الوضعية الاجتماعية، بل عدم الرضى العام عن الديمقراطية الليبرالية وميولاتها النيوليبرالية وبالاغتراب الاجتماعي والحنين الجمعي إلى المألوف الثقافي، وهو إحساس هوياتي عام تلتقفته الأحزاب الشعبوية اليمينية بتركيزها على فكرة إعادة إحياء الماضي القومي الجمعي من أجل «الذود» عن الهوية الإثنية المتخيلة.

> تهدف السياسات الشعبوية إلى صناعة ذاكرة مُغلقة
>
> تنزع صفة الإنسانية بمجرّد التفريق بين «هم» و«نحن»

من هذا المنطلق لا يمكن تفسير النجاح الانتخابي للأحزاب الشعبوية بأنه ردة فعل مباشرة على حضور الآخر ولا سيما بعد حركة اللجوء العربية ابتداء من سنة 2015 فحسب، بل هو بالأساس ردة فعل على أوضاع اقتصادية واجتماعية تراكمت نتيجة لعوامل متنوّعة، تختزلها الشعبوية اليمينية في سياسات الهجرة واللجوء الأوروبية، تدعي أنها معارضة لها، وهو اختزال استهلاكي يتلاقى مع الذاكرة الجمعية الشعبية، التي ترى في حضور «الآخر» حتى ولو كان حضوراً تخيلياً، تفسيراً سهلاً وجاهزاً للتحولات الاقتصادية والاجتماعية، التي شهدتها ولا تزال المجتمعات الأوروبية. في هذا السياق يشير أحد الاستطلاعات الألمانية إلى أن 21 % من المواطنين الألمان لديهم مواقف شعبوية يمينية، بما فيها عدم الثقة في الديمقراطية، وازدراء اللاجئين. لكن في المقابل أعلن أكثر المستجيبين رفضهم للتصورات الشعبوية اليمينية.

إذا كان لكل شعبوية متخيلاتها الخاصة التي تسعى إلى نشرها، فإن لدى الشعبوية اليمينية متخيلات فوقية عن الذات والآخر تتقاطع مع محتويات انغلاقية لا تزال حاضرة في الذاكرات الجمعية للعديد من المجتمعات الأوروبية حتى ولو لم تشهد تلك المجتمعات حركات هجرة ولجوء كبيرة إليها مثل هنغاريا على سبيل المثال لا الحصر.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

تحوّلات عربية

إلى زمن قريب، يبدو مفهوم الشعبوية غامضاً ومشوّشاً في الثقافة العربية، ذلك أن الباحثين قلّما تصدّوا له بالبحث والتساؤل، ربما لاعتقاد بأن كل ما هو شعبويّ يقع خارج منطقة البحث العلمي. يمكن أن نلاحظ تغيّراً حاسماً في هذا الإطار مع صدور مجموعة من الكتب حول الشعبوية مثل: «في الإجابة عن سؤال: ما الشعبوية؟» لـ عزمي بشارة و ترجمة رشيد بوطيب لـ«ما الشعبوية؟» للباحث الألماني ليان فرنير مولر.

إطلالة

لحظة خاطفة اسمها المقامة

انتصارُ القصّة القصيرة

لم تكن المقامة أساساً للقصة القصيرة العربية، بل الموّثرات الأجنبية من جهة، والواقع العربي من جهة ثانية، بما فيه من رغبة في ظهور الفرد

ممدوح عزام

المتّفق عليه بين معظم النقّاد أنّ نشوء أي نوع أدبي، أو ازدهاره، يرتبط بشروط العصر. ولهذا، فإنّ مهمة البحث عن النشوء تتطلب بالضرورة البحث في الشروط التي أتاحت لهذا النوع أو ذاك فرصة الولادة والحياة. فتجربة كتابة المقامة، مثلاً، لم يُكتب لها أن تستمرّ في الكتابة العربية، لأنّ شروط العصر قد تغيّرت، ولا يُعرف اليوم في ما إذا كانت المقامة، أيّ مقامات بديع الزّمان الهمذاني، قد استجابت بالفعل لشروط عصرها أم لا. ومع أنّ عبد الفتاح كيليطو يقول إنّ أسباب ظهور المقامة ليست واضحة، فإنّ روجر ألن يذكر، في مقدّمته لـ«حديث عيسى بن هشام» لمحمد إبراهيم المويلحي، أنّها كانت تعبيراً عن العالم السفلي للمدينة العربية في عصر العباسيّين، حيث يقوم أبو الفتح الإسكندري بدور البطولة كشخاذ ذي حيل كثيرة لابتزاز المال من الناس.

وإذا كان هذا الرأي صحيحاً، فإنّ عدم استمرار هذا النوع الأدبي المبتكر بوصفه تعبيراً عن عالم شرائح من المجتمع يثير السؤال التالي: هل دُفرت تلك الشرائح الاجتماعية؟ هل مُنعت من التعبير عن نفسها؟ غير أنّ تجربة الهمذاني لم تصبح نوعاً أدبياً سائداً يجرّب الكتابة فيه ويطوّر بُنيته أدباءُ وكتّابٌ في اللغة العربية. وبهذا المعنى، فقد كانت المقامة تجربة إبداعية فريدة في الأدب العربي، غير أنّها لم تستطع أن تكون نوعاً أدبياً.

والراجح أنّها لم توفّر العناصر الفنية الضرورية لتوليد النص الجديد القادر على مجاراة روح العصر، فمن الصعب تجديد الخطاب الفكري بها، ولهذا لم يكن من الممكن أن تكون المقامة بديلاً للقصة القصيرة في العصر الحديث، أو أصلاً لها في النشوء. وقد كان مصير المحاولة التي قام بها محمد إبراهيم المويلحي، في عمله الشهير «حديث عيسى بن هشام»، أن يظلّ وحيداً وفريداً.

ولم تكن تجربة الشدياق أو اليازجي قد نفعت في تسويق هذا النوع الأدبي، أو في إعادة إحيائه، إذ لم تكن تتضمّن أيّ محتوىً اجتماعي عميق. ولم تكن التجربة التي خاضها عبد السلام العجيلي ذات أثر أيضاً في التاريخ الأدبي السوري أو العربي. وظلّ كتابُه الذي منحه عنوان «المقامات» يتيماً في تجربته القصصية، وفي تجربة كتّاب القصة السوريين والعرب الذين جاؤوا من بعده. وقد اعتُبرتْ مجرّد محاولة طريفة تسخر من بعض الظواهر، من دون أن تتمكّن من إحداث أي تغيير في عالم الكتابة. وقد مضى العجيلي نفسُه يكتب القصّة القصيرة لحسن حظ قرّاء العربية، ليُنتج مجموعة من المتع القصصي في الأدب العربي.

أظنّ أنّ البطل الوحيد، أي بطل المقامة، رغم فرادتها، لم تستطع المقامة أن تكون نوعاً أدبياً

لم يعد قادراً على تمثيل المجتمع، كما أنّ كلّ فرد بات راغباً في أن يرى نفسه، أو فرديته، في النصّ الأدبي، بينما تبدّلت لغةُ الكتابة إلى لغةٍ أخرى تبني معجمها الخاص بها، الذي يستعير مفرداته من هذا العصر، لا من الماضي. لهذا، لم تكن المقامة أساساً للقصة القصيرة العربية، بل كانته المؤثّرات الأجنبية من جهة، والواقع العربي نفسه، من جهة ثانية، بما يتطلبه من الرغبة في ظهور الفرد الجديد المتحرر.

(روائي من سورية)

أبو زيد السروجي في قارب، من «مقامات» الحريري (Getty)

شعر

في المطر لا أحد يعرف من أين جاء الآخر وأين يغيب

جبلٌ تحمله فراشاتٌ من حدائق بابل

حمزة كوتي

يريد العالمُ
أن يبتكر
روعتَه
في الضوء
في الزهرة
في الظلمات.
يريد العالم
أن يخلق نفسه
في صوت العصافير
في فواكه
كالفضة
كالعسل.

يريد العالم أن
يكون له
جسدٌ من الصمت
من الجمال
جسدٌ من ابتسامة
طفلٍ جديد.

يريد العالم
أن يكتب
مراثي جديدة
للشجرة
للمطر
للقوارب
التي
وجدنا فيها
امرأةً ميتة.

■■■

خلف النافذة
صوت بعيد
لبائع جوالٍ
يبيع أيامًا
كالخرز
جميلةً وملونة.
خلف النافذة
ضوءٌ من لون أخضر
ضوءٌ من لؤلؤة منسية
في صدر ميتة.
خلف النافذة
يتحرك العالمُ
ويُحرّك الأرصفة
يُحرّك الأغصان
يحرّك الناس
يسْقِلهم من لحظةٍ
ويلقي بهم
إلى لحظةٍ أخرى.

■■■

في المرآة
نافذةٌ
خلف النافذة
عصافير
تطير العصافير
وتغيب
وظلُّها
يغيب
في المرآة
تعيد العصافير
معنى النافذة
إلى النافذة
تعيد ظلّها
ويبقى
في ذاكرة المرآة.

■■■

في الكلمة
جبلٌ
تحمله
فراشاتٌ
من قوس قزح
فراشاتٌ
من حدائق بابل.
في الكلمة
بحرٌ
فيه حورياتٌ
يتحدثن
مع الآلهة
عن روضة أطفال
تدعى
الأرض.

(شاعر من الأهواز)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أسامة يعليكي، الوان مائية، 2020

فعاليات

ينظّم موقع «منهجيات»، يوم الاربعاء المقبل، ندوة افتراضية بعنوان **التعليم والتعلّم في مناطق الأزمات واللجوء والنزوح** تحاور فيها **جمانة الوائلي** كلاً من **سائدة عفونة**، و**آية غندور**، و**سوسن ابو حماد**، و**محمد مصطفى**، حول تجاربهم الشخصيّة في تعليم اللاجئين والنازحين، في فلسطين ولبنان وسورية والاردن.

يوم الثلاثاء المقبل، يجري اطلاق مشروع **ايكولوجيات ما بعد الاستعمار** في «دارة الفنون» في عمّان. يتضمّن المشروع مجموعة من المعارض والإقامات الفنية الافتراضية وفيها تناقش قضايا بيئية من بينها اثر الممارسات الكولونيالية في تلويث البيئات الطبيعية ومصير النظم البيئية المحلية، انطلاقًا من مفهوم العنف المعرفي الناتج عن تقنيات القياس والحساب.

في السادس والعشرين من شباط/ فبراير الجاري تنطلق فعاليات الدورة الثانية من **معرض مصر الدولي للفنون**، وتستمرّ حتى الثامن والعشرين منه، وذلك بمشاركة اكثر من مائة فنّان عربي، من بينهم **صلاح المر** (السودان، اللوحة)، **مهنّد عرابي** (سورية)، و**سيروان بارات** (العراق)، و**حكيم العاقل** (اليمن).

باريس تحت الثورة عنوان جولة افتراضية تقدّمها مؤسسة **باري زيغزاغ** يوم غدٍ السبت، وتقوم فكرتها على إضاءة المعالم التي تحيل إلى «الثورة الفرنسية» من خلال العودة إلى مجموعة المواقع التي دارت فيها أهمّ الأحداث، من اقتحام الشعب لقلعة الباستيل (1789) إلى سقوط حكم روبسبيير في 1794.